كتب

بعنأى عن الترهيب

تعليم العربية زمن التوجّس الفرنسي

نجم الدين خلف الله

منذ ظهور الميثاق الأوروبيّ لتدريس اللغات، ما فتئَ المشتَغلون في قطاع تعليم الضاد للناطقين بغيرها يُواصلون الجهودَ حتى يضيّقوا الشقّة بين هذه اللغة واقتضاءات هذا الميثاق، الذي يُركّز على الكفاءات، بَدلَ المعارف ونظريّ المعلومات.
ومن بين آخِر هذه الجهود، كتابُ فادي شاهين: «السِّفْر A1»، الذي صدر مُؤخّرًا عن دار لارماتان الفرنسية، في مائتي صفحة تزدان بالألوان والصُّور والمربّعات التوضيحيّة، كما رافَقَها تسجيلٌ صوتيٌّ، مما يجعلها أكثر جاذبيةً ويُيسر استعمالَها أداةً بيداغوجية عمليَّة لمن يروم دراسة لغتِنا بذاته، أيْ: بشكلٍ عصاميّ، ولاسيما في أوساط فئات الشبّان والكُهول في البلدان الفرنكفونية.
يركّز هذا المنهج الدراسي على اكتساب مَهارات التواصل باللغة العربية الوُسطى، التي تُباين كلاً من السجلّ الفصيح والمَحكي، لكن من دون أن تَقطع مع أيٍّ منهما. ويتوجّه هذا العمل إلى الطلّاب المبتدئين تمامًا، الذين لا يملكون أدنى فكرةٍ عن هذه اللغة وحروفها، لا نُطقًا ولا رسمًا. ولذلكَ خَصّص الجزءَ الأول منه، والذي عَنْونه: «الخُطوات الأولى»، كأنما الضّاد دربٌ وعرٌ طويل، لإتقان حروف الألفباء مشافهةً وكتابةً.
وفي هذا القسم التمهيديّ، أوضح شاهين أنَّ طبيعة هذه «الخطوات الأولى» تهدف إلى التمكّن من رَسم الحروف ونُطقها، فضلاً عن امتلاك بَعض الكلمات السّهلة وحفظ أجزاءَ من الحوارات والعبارات عن ظهر قلب في محاولة لخلق شعورٍ، لدى الطالب المبتدئ، بقدرته على تقديم نفسه بشكل موجز منذ الدرس الأول. وقد ألحق بهذا القسم معجمًا بسيطًا، يتضمن كل المفردات التي تُطرَق إليها في هذا القسم الأول مع ترجمتها إلى الفرنسيّة.
وبالنظر إلى قواعد الإطار الأوروبي لتدريس اللغات، فإنّ هذا التمهيد لا يندرج ضمن أي مستوى من مستوياته الستّة، وإنّما هو توطئة ضروريّة من أجل النفاذ إلى المستوى A1 والذي يقتضي بعدُ استخدامَ العديد من الجمل الجاهزة، ضمن كفاءات التعبير عن الذات، في سياقات الحوار الفعليّة.
وأما القسم الثاني فتوالت فيه فُصول المنهج السبعة مركزةً على اكتساب سائر المهارات التعبيريّة مثل الحديث عن الطقس والتسوّق ووصف الأمراض لدى الطّبيب وغيرها من مَواقف «المحافظة على البقاء»، كما جاء في نصّ الميثاق، وهي سلسلة من الحوارات والنصوص الهادفة إلى تمكين المتعلم من إلقاء التحيّة بمختلف صيغها، والحديث عن الذات وعن الغير، والعطلة والأصدقاء والعمل، في نطاق حقل محدودٍ من الموضوعات. وكلّ وَحدةٍ من هذه الوحدات السبع تنقسم إلى نصٍّ رئيس، ثمّ إلى مفردات، تعابير، قواعد مبسطة وتُختم بتمارين تطبيقيّة تعين على تمثّل تلك القواعد وتثبيتها كآلياتٍ ذهنيّة تلقائيّة.
ولا شكَّ أنَّ الرهان البيداغوجي الذي يَطرحه هذا الكتاب، وغَيره مما أُلّف في أوروبّا في السَّنوات القليلة الماضية، هو التوفيق بين قواعد اللغة الفصحى، والتي قلّما تُستخدم في التواصل اليومي، وبين ضرورة امتلاك ناصية كفاءات التواصل الحقيقيّة، دون اصطناعٍ أو تكلفٍ. ذلك أنَّ ما يَشتكي منه طلبةُ العربيّةِ من الناطقين بغيرها في أوروبّا، هو بُعد الشقّة بين الفصيح النظري واللهجات العاميّة. وقد يُضيفون أنَّ ما يَحفظونه من هاتيك القواعد «لا يصلح لشيءٍ عدا تأمل جُملٍ وتراكيبَ، مَفصولةٍ عن الواقع، حيث نَعجز عنْ الفهم وعن التعبير آناء مخالَطتنا العَرب في بلدانهم» .
ولذلك جَهد فادي شاهين في تَقليص هذه الشقّة عبر التركيز على مُفردات العربيّة الوسطى والتي فَرَضت ذاتها على الاستخدام اليومي. وتجدر الملاحظة هنا أنَّ اختياراته للرصيد المعجمي، المتألف من زهاء ثلاثمئة مُفردةٍ وعبارة، قد خَضع إلى «منهجيّة تجريبية صارمة». فعلى امتداد ثلاثِ سنوات كاملة، قام شاهين بتدوين كلمات المحاورة، المأخوذة من الحياة اليومية، على شاشة حاسوب، داخل الفصل مع المُتعلّمين، حتى ترسخ في ذاكرتهم البصريّة، بعد أن كان قد طَلبَ منهم تصوّر الكلمات-الأدوات التي يحتاجونها ضمن التواصل الأولي التلقائي. واستمرّ العمل بهذه الطريقة طيلة حصص طويلة حتى تمخّضت هذه القوائم المعجميّة، التي اتضح أنّها الأكثر تردّدًا والأقرب إلى «المهام التواصليّة المرسومة في مستوى A1»، حسب الميثاق.
وبالاعتماد عليها تحديدًا، تمّت صياغة حوارات الكتاب مع إضافة بعض المفردات من السجلّ الدّارج، حتى تكون هذه الجمل الحواريّة أقربَ إلى حياتنا في المجتمعات الراهنة وأبعدَ عن التصنّع أثناء نشاط المُحادثة. هذا، وقد عدَّ الكاتبُ إدماجَه لبعض الكلمات المَحكيّة «مغامرة كُبرى وحقلاً مليئاً بالمسؤولية»، لأنّه يَطرح، من خلال هذه الخطوة البيداغوجية، قضيّة السجل اللغوي الذي ينبغي أن يُدَرَّس اليومَ للموظفين والصحافيّين وحتى للطلاب الذين يدرسون الضاد، لا من أجل التعرّف إلى نصوصها الأدبية الكلاسيكيّة، ولا من أجل مطالعة أعمدة الصحف الإخبارية والمختصّة، وإنّما من أجل تبادل بعض الجُمل أثناء عملهم في العالم العربي.
ويتساءل شاهين: «هل نَصلُ في يومٍ من الأيام إلى فصل تَعلّم العربية القديمة عن العربية المعاصرة وفتح قسمين مختلفيْن لهما في الجامعات؟»، تساؤله مشروعٌ نظرًا إلى حَجم المسافة الفاصلة بين العربية المكتوبة واللهجات المحكية، ولا سيما في «مهام» التّواصل الحقيقية التي نمارسها، يوميًا وبشكلٍ عفويٍّ، في مجتمعاتنا. فما من أحدٍ منا يتكلّم الفصحى مع أهل الحيّ ولا مع خَبّازه أو بقّاله، وإلاّ عدَّ ذلك ضربًا من التعالي.
وأما قواعد النّحو فقد حَظيت هي الأخرى باهتمام كبير، في هذا المستوى، ووقَع التركيز على تملك الضّمائر المنفصلة وتصريف الأفعال في المضارع المرفوع، إلى جانب شُذرات ممّا يُحتاج إليه في هذه المرحلة. ولا يخفى أنَّ تدريس القواعد من أعقد المسائل التي ينبغي أنْ تحظى بفضل تَفكيرٍ وتَدبيرٍ، حتى نَصل إلى المقدار المطلوب منها، دون أن نُلحق الضيم لا بالضّاد في معياريّتها ولا يُرهقَ مُتعلموها بكثرة الاستثناءات ووَعر التصريفات.
«كتاب السِّفر» مساهمة مرحَّبٌ بها في فرنسا اليوم وسط أجوائها المشحونة خوفًا من كلّ ما هو عربي ورَبْطه بالتطرّف. وهو وثيقة جديدة مفيدة، تنضاف إلى رصيد الوثائق والمستندات البيداغوجيّة الأخرى الهادفة إلى تَحديث تدريس العربية المعاصرة ووَصلها بمشاغل الناس والسير بها نحو دوائر المُحاورة، حتّى لا تظل لغتنا، وفي هذه الدوائر ذاتها، رهينةً للاقتراض الأجنبي أو للصيغ الموغلة في مَحليتها. خطوة أخرى نحو العربية الوسطى. والمأمول أن تَتبَعها أجزاء لاحقة تغطّي المستويات الخمسة المتبقية وتنزع عن الضاد بعض ما لَحق بها، جرّاء مناصريها ومناوئيها، من هالات التقديس والترهيب.

جدارية في مونتريال الكندية لـ كريم الجباري

مثل إضافة كتاب ناقص من التراث العلمي

نقّاد أرسطو لا شرّاحُه

شوقي بن حسن

إذا كان هناك اعتراف بدور العرب في الحفاظ على المعرفة - من الفلسفة إلى علوم الحياة - خلال العصور الوسيطة (التي تقابل ما يُعرف بعصور الظلمات الأوروبية)، أي أنهم كانوا حلقة الوصل بين زمن الإشعاع الإغريقي وعصر الحداثة، فإننا نقف على اختلاف بين تقييمين لهذا الدور؛ الأوّل يقول بأن العرب لم يكتفوا بدور نقل الأمانة الإغريقية كما هي إلى الغرب بل أضافوا لها وطوّروا الكثير من مقولاتها، مقابل رأي ثان كان يحصر دورهم كمجرّد ناقل لم يمتلك أفقاً نقديّاً يتيح تجاوز الإرث الإغريقي.
في كتابه «الشكوك على أرسطوطاليس.. فصول في تاريخ العلوم العربية» الصادر مؤخراً عن منشورات «نيرفانا»، يعود الإبستيمولوجي التونسي محمد بن ساسي إلى عدد من نصوص الفلاسفة والعلماء العرب القدامى حول الفيلسوف اليوناني ليفحص موقع العرب في تاريخ المعرفة؛ هل هم مجرّد ناقل بين «غرب قديم» و«غرب حديث»، بلغة المؤلف، أم كانت لهم إسهامات لولاها ما كانت اكتشافات غاليليه ونيوتن وكبلر ممكنة. عبر عودة متأنية إلى نصوص «شرّاح» أرسطو في مجالات متباينة؛ مثل ابن باجة مع الديناميكا، وابن سينا ضمن البصريات، وابن فتح الخازني في علم الحيل/ الميكانيكا، يحسم بن ساسي الكثير من ذلك الجدل المطوّل حيث يثبت بأن من نتداول على تسميتهم بالشرّاح إنما هم نقّاد، فكثيراً ما خرجوا عن أقوال صاحب «الأورغانون» في مسائل طرحها بنفسه واعتقد بأنه وضع لها حلولاً علمية، غير أن علماء المسلمين «خرجوا عن تعاليم المعلّم في اقتراح حلول مغيرة»، وفق عبارة المؤلف. فهل يمكن - بعد ذلك - أن نحصر من يتجرّأ على مثل هذه المقولات الفاحصة في خانة الشرح؟

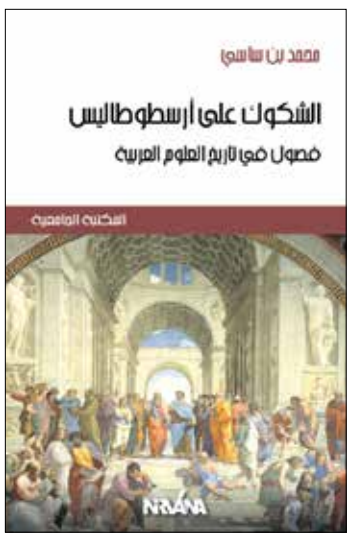

أشبه بكتاب جماعي لعلماء قدامى تحت إشراف محمد بن ساسي

لا يبيّن بن ساسي مساهمة العرب في تطوير الإرث الأرسطي بلهجة المدافع أو المطالب بالاعتراف، كما درجت عليه الكتابات العربية في تاريخ العلوم (وهي نزعة ينقدها بشكل متفرّق في كتابه)، حيث يصوّر علاقة العرب بأرسطو كحالة من التوتّر بين نقيضين؛ الإيمان بعلمه والشك فيه، في هذا السياق يضيء الكثير من السجالات بين علماء المسلمين (ابن رشد/ ابن الهيثم، وابن سينا/ البيروني...).
من هنا، يعتبر الباحث التونسي أن الغرب الحديث قد ورث التراث اليوناني الذي حافظ عليه العرب، كما أنه ورث أيضاً تراث العرب، وقد حرصوا هم أيضاً على أن يكونوا نقاداً لا شرّاحاً، وهو ما يسمّيه بن ساسي بـ«الاختيار العربي ليخلقوا أنفسهم بأنفسهم»، في إشارة لطيفة إلى أمم أخرى ورثت علم الإغريق وتبدّد بين أيديهم أو لم يعرفوا قيمته أصلاً فغفلوا عنه، من ذلك الرومان باعتبارهم حلقة وصل أخرى بين «الغرب القديم» و«الغرب الحديث».
رغم أنه يمكن القول إن كتاب بن ساسي يقدّم ما يشبه الإجابة الحاسمة في ما يتعلّق بتقييم دور العلماء العرب في تاريخ العلوم، إلا أنه وضع لنفسه مطمحاً آخر ورد في مقدّمة الكتاب حيث يقدّم ملاحظة دقيقة يفتتح بها إشكالية ثانية أكثر خفاء وعمقاً حيث يشير بن ساسي إلى أن الفلاسفة العرب و«إن شكّوا في مجالات عديدة من الإلهيات والطبيعيات وحتى المنطقيات فلا أحد تجرّأ أن يعنون نصاً من نصوصه بعنوان «الشكوك على أرسطوطاليس» على غرار ما فعل الرازي مع جالينوس، وابن الهيثم مع بطليموس».
من هذه الزاوية يبدو كتاب بن ساسي مثل إضافة كتاب ناقص في المكتبة التراثية العربية، كتاب نجد فصوله متفرّقة في كتب كثيرة، وكأنه عمل جماعيّ - بمفردات حديثة - لعلماء المسلمين أشرف عليه الإبستيمولوجي التونسي، وهو الذي يشير إلى عدد من المؤلفات العربية القديمة التي كان من الممكن أن تعنون بـ«الشكوك على إرسطوطاليس» مثل كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا. فكأن بن ساسي يستخرج من التراث العلمي العربي كتاباً من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بحسب مفاهيم من المعجم الفلسفي الأرسطي.

نظرة أولى

عن «الآن ناشرون وموزعون» في عمّان و«مركز الدراسات الشرقية» في بريشتينا، صدر مؤخراً كتاب **مقاربات بلقانية عن القدس خلال الحكم العثماني** من تأليف عدد من المؤرخين من صربيا وكرواتيا والبوسنة وكوسوفو، وترجمة وتحرير المؤرخ الكوسوفي السوري محمد م. الآرناؤوط. يكشف الكتاب عن جوانب غير معروفة عن علاقات شعوب البلقان مسيحيين ومسلمين بالقدس خلال 800 سنة، منذ بداية القرن الثالث عشر، نتيجة لمكانة القدس الجديدة والارتباط الروحي والثقافي بها الذي تواصل عبر القرون خلال الحج وما بنوه هناك من منشآت دينية.

بترجمة أسامة غاوجي، صدرت حديثاً عن «الشبكة العربية للأبحاث والنشر» النسخة العربية من كتاب **مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية** للمؤرّخ الأميركي مارشال هودسون (1922 - 1968). يُعدُّ الكتاب، الذي صدر عام 1974، أحدَ المراجع الأساسية في الاستشراق وسوسيولوجيا الإسلام. وقد قضى مؤلّفه 12 عاماً في تأليفه، ولم يصدر إلّا بعد ستة أعوام من رحيله. عن هذا العمل، يقول إدوارد سعيد: «باستثناء كتاب ‹مغامرة الإسلام› لم يحدث أن وجد جمهور المثقّفين كتاباً عامّاً عن الإسلام يعرضه عليهم بالأمانة المطلوبة».

ضمن سلسلة «حداثات» التي يصدرها «معهد تونس للفلسفة» و«دار كلمة»، صدر مؤخراً كتاب جماعي بعنوان **فلاسفة قرطاج** أشرف عليه فتحي التريكي. يأتي هذا الكتاب ضمن مشروع أوسع يعتني بتاريخ الفلسفة في تونس كان إصداره الأول قد نُشر في 2012. من الفلاسفة الذين يتناولهم الكتاب أوغسطينوس وترتوليانوس وسيلوس أبيلوس تيسوس ولاكتنسوس. ومن المشاركين في تأليف الكتاب: معز المديوني، ومحمد علي الكبسي، ومعاوية مملوك، ودليلة بلحارث، وإدوارد سميث، وعادل الغربي، ولطفي الحجلاوي.

صدرت مؤخراً النسخة العربية من كتاب **مفهوم الفزع** للفيلسوف الدانماركي سورن كيركَكُورد (1813 - 1855) عن «دار الرافدين»، ونقلها عن الدنماركية مباشرة المترجم العراقي قحطان جاسم الذي كتب أيضاً مقدّمة تضيء فكر كيركَكُورد وموقع هذا العمل ضمن مجمل مؤلفاته. صدر الكتاب لأول مرة في عام 1844 وفيه يتأمّل الفيلسوف الدانمركي علاقة الإنسان بالخطيئة من خلال تحليل فكرة الخطيئة الأصلية باعتبارها إحدى السرديات المؤسسة في الحضارة البشرية، ومن خلالها يفهم الكثير من مسارات البشر وخياراتهم من زوايا نفسية وفلسفية.

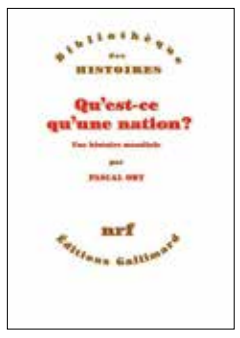

ماهي الأمّة.. تاريخ عالمي عنوان كتاب صدر مؤخراً للباحث الفرنسي باسكال أوري عن منشورات «غاليمار». يشير المؤلف في مقدّمة كتابه إلى أن منطلقه هو نفس السؤال الذي طرحه المؤرخ الفرنسي إرنست رينان في القرن التاسع عشر، وطرح ضمن ثقافات أخرى كثيرة ضمن تبلور النزعة القومية التي عرفت تراجعاً ملحوظاً في نهايات القرن العشرين إلى أيامنا مع صعود التصوّر الشمولي للعالم إثر سقوط جدار برلين وأثر التكنولوجيا في تغيير مفهوم الانتماء. من خلال جولة من اليابان إلى المكسيك يقدّم أوري تريخ مفهوم عرف تحوّلات حادة خلال قرنين.

صدر حديثاً عن «المؤسسة العربية للدراسات» كتاب **أحفورات الفهم: تاريخانيّات المعنى** للأكاديمي السوري نجيب جورج عوض، ويتضمن مجموعة من الدراسات التفكيكية والتحليلية التي تقارب الثقافة والدين والسياسة كتبها المؤلف خلال السنوات الخمس عشرة الماضية وشارك فيها في محاضرات ومؤتمرات في جامعات غربية وعربية، وعمل فيها على مقاربة الهم الثقافي والمخيال اللاهوتي والفكر السياسي العربي والغربي بمنهجيات تاريخولوجية لمقاربة السياقات الثلاثة، في كل فصل يقيم الباحث محاورة بين الفكر السياسي والديني والثقافي العربي والغربي حول قضية ما.

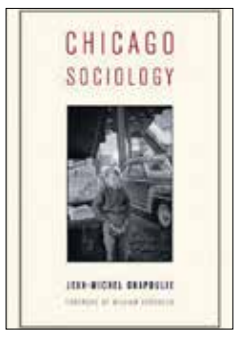

صدر حديثاً عن منشورات «جامعة كولومبيا»، كتاب **سوسيولوجيا شيكاغو**، للباحث جان ميشيل شابولي (1941) بنسخة جديدة، ذلك أن الكتاب صدر أول مرة بالفرنسية في 2001، وتناول فيه الكاتب مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع التي تعرف بدراساتها الرائدة للحياة الحضرية والهجرة والجريمة باستخدام «المدينة مختبراً»، وكان لها حضور مهيمن في العلوم الاجتماعية منذ ظهورها في جامعة شيكاغو في العقود الأولى من القرن العشرين. الكتاب يتتبع تطور وتأثير تقاليد شيكاغو، بالاعتماد على أبحاث أرشيفية عميقة ومقابلات أجراها سابقاً مع بعض مؤسسيها.

صدر حديثاً عن «دار الكتاب الجديد» في بيروت ترجمة لكتاب **فلسفة اللّغة الدّينيّة؛ العلامة والرّمز والقصّة** لـ دان ر. ستايفر أنجزها الأكاديمي كيان أحمد حازم يحيى. يتيح الكتاب مدخلاً إلى الفلسفة التحليلية للغة وصلتها بجانبيها التحقيقي والوظيفي، وكيف أثرت تطورات هذه الفلسفة على اللغة الدينية. كما يقدم الكتاب تحليلاً لأهم المفكرين في هذا الحقل والنصوص المركزية فيه، ويتناول علم التأويل، وفلسفة الاستعارة، والسرد، والبنيوية، وما بعد البنيوية وعلاقة كل هذه المجالات بتحليل النصوص الدينية، وخاصة المسيحية.